

٤ - القرآن الكريم في كتاب النثر الفني للأستاذ محمد أحمد الخمراري

وكتاب النثر الفني - أو النثر الفني في القرن الرابع إذا لم يختصر اسمه - بحث قدمه الدكتور زكي مبارك لينال به الدكتوراه من جامعة باريس، ولم يجد سبيلاً إلى جديد يقدمه في بحثه إلا أن يبدى ويعد وينقص وي زيد في تاريخ اللغة العربية وآدابها، وتاريخ الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها، ليثبت أن نشأة النثر الفني جاهلية لا إسلامية. والنثر الفني الذي يريد ليس هو نثر الخطب والأمثال والحكايات، ولكن نثر الرسائل والكتب. فهو يزعم أن العرب في جاهليتهم كانوا يكتبون الرسائل ويؤلفون الكتب^(١)، ودليله في هذا «أن القرآن يشير

(١) الجزء الأول صفحة ٣٤

(١) الجزء الأول صفحة ٣٤

إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه السلام حتى يتهم بأنه لفق القرآن مما نقل إليه من علوم الأولين» ذاكراً آية سورة العنكبوت (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك، إذ ن لا رتاب المبطون) التي جعلها من سورة القصص. واحتج عليه السيوطي، فيما حكى في كتابه عنه وعن نفسه، بأنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها. كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم، فأجابه «بأن فقدان تلك الآثار لا يكفي لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود^(٢)، ثم زاد زكي مبارك بعد ذلك «على أن في القرآن الكفاية وهو أثر جاهلي كما سنبينه بعد قليل»

وقد أنفق هذا القليل في إنكار أن تكون النصوص النثرية المروية عن العصر الجاهلي صحيحة زاعماً أنها «مما وضع في العصر الأموي وصدر العصر العباسي لأغراض دينية وسياسية»

فما كان منه في الإسلام، لا فيما كان منه في الجاهلية ومنهم من ينكر ذلك الحكم لأنه يخالف قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالولد للفراس وللماهر بالحجر. وهذا خطأ ظاهر، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بذلك في زنا الإسلام لا في زنا الجاهلية، ولهذا أقر كل ولد كان ينسب إلى أب من أي نكاح من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها. وقد ولد عمرو بن العاص بمنزل ما ولد به زياد، فألفقته أمه بالعاص، ثم جاء الإسلام فأقر ذلك الإلحاق. ومنهم من ينكره لاتفاق المسلمين على إنكاره، ولأنه لم يستلحق أحد في الإسلام مثله ليكون به حجة. ودعوى الاتفاق في ذلك ظاهرة البطلان، وعمل معاوية مما يحتاج به ولو لم يسبق إلى مثله، ولا يبقى بعد هذا إلا أن يقال إن حق زياد في ذلك قد سقط بطول المدة، وبفسخ الإسلام لذلك النكاح الذي قام الاستلحاق على أساسه. ويمكن أن يجاب عن هذا بأن طول المدة قد اختلفت الشرائع في تحديده وبأن الإسلام حين نسخ ذلك النكاح لم يفسخ آثاره

عبد المتعال الصفي

صلى الله عليه وسلم، وكان ممن اختاره لكتابة الوحي فائتمته على أمر السماء، فبيد على مثله أن يقصد إلى أمر يخالف الشريعة علانية كما زعم أولئك القوم، وقد كان له في ذلك اجتهاد مقبول سنينته، ولا يهجننا بعد ذلك أن يكون أخطأ فيه أو أصاب، لأن مثله إذا اجتهد فأخطأ عذر في خطئه، ولم يكن لذلك مطلق في حكمه، لأن مسائل الاجتهاد يرجع أمرها إلى الظن، ولا يعلم الخطأ فيها يقيناً

ولو رجعنا إلى ما ذكره أولئك القوم لوجدنا أن منهم من ينكر ذلك الحكم لأنه يرى أن أبا سفيان لم يجتمع بسمية، وهذا تمت ظهراً، لأنه لم يكن ما يدعو أبا سفيان إلى أن يكذب في دعوى اجتماعه بسمية، وفي دعوى أنها علقت بزياد من اجتماعه بها، وقد كان زياد في عهد عمر فتى ناشئاً لا خطر له، وكان لأبي سفيان من الأولاد من هو أجل منه خطراً ولو لم يكن له منهم غير معاوية لسكنى، وقد صدقه على في اجتماعه بسمية وأن زياداً من نطفته، ولكنه رأى أن ذلك كان فلتة لا توجب ميراثاً ولا نحل نسباً. والحق أن رأيه في ذلك صحيح

فلما عدت واجمعه فوجدته يصير على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينجم بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قدم النثر الفنى عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن نقض بعض ما يرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفرس واليونان ! فهل رأيت أو سمعت بحمق كهذا الحق الذى يريد أن ينقن عن العرب تهمة أخذ النثر الفنى عن الفرس واليونان فلا يرى سبيلاً إلى هذا إلا أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليرده أترا جاهلياً يثبت لهم به ذاتية أدبية ؟ ! أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب ؟ إذا كان من عند الله فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالتى أراد وليس فيه لعربى منهم حرف ؟ وإن كان أترا جاهلياً يثبت قدم النثر الفنى أى نثر الرسائل والكعب ، عند العرب ، فكيف يمكن أن يكون من عند الله ؟ إن هذا الرجل بين أن يفكر القرآن أو أن يفكر (نظريته) فى نشأة النثر الفنى ، كما يسمى فرضه الذى افترض ، ليس له عن أحدهما محيص

وإن أردت مثلاً آخر فافقرأ له قوله بعد ذلك : « القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ولو كره المكابرون . فأين نضعه من عهد النثر فى اللغة العربية ؟ أنضمه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يثير أوضاع التمايز والأساليب ! » رأيت استدلال الدكتور البهانة على وجوب وضع القرآن فى العهد الجاهلى ؟ الإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يمكن أن ينسب القرآن إلى العهد الإسلامى ، وإذن فالقرآن كان موجوداً قبل الإسلام ما دامت نسبة القرآن إلى العهد الإسلامى غير ممكنة ! هذه هى نتيجة منطق الدكتور . وهذا طبعاً يستلزم أنه يفرق بين القرآن وبين الإسلام ، إذ لو كان القرآن والإسلام شيئاً واحداً عند الدكتور لكان القياس الذى بنى عليه حجته السابقة هو أن القرآن لم يكن موجوداً قبل القرآن ، وإذن فلا يمكن أن ينسب إلى العهد القرآنى ! وهو قياس كما ترى لا يليق أن ينسب إلى دكتور

فأنكر مثلاً خطبة قس بن ساعدة الإيادى فى قوله : « وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا شك خطبة وضعت للإمام الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفقين من أصحاب الحكمة فى عهد الجاهلية » وبعد أن مضى ينكر وينفى ويتهم بشير دليل قال « فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر فنى قبل الإسلام ؟ فليعلم القارىء أن لدينا شاهداً من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه وهو القرآن » ص ٣٨ ، ثم عقب على ذلك بقوله : « ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن أترا جاهلياً ، فإنه من صور العصر الجاهلى ، إذ جاء بلفظه وتصوراته وتقاليده وتمايزه وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرد صفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء . تأمل كلامه هذا جيداً وافهمه فى ضوء ما قدمنا لك فى المقالين السابقين وفى التمهيد قبلهما ، ثم تأمل قوله « وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء » فإن لازم هذا الكلام أنها كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند النبي . وهذا تلميح كتصريح فى الوضوح . ثم مضى يتم حكايته عن نفسه فقال :

« وقد قدمت هذا الشاهد للمسير مرسية الذى يرى أن النثر الفنى يبتدىء بآبى اللقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد إلى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى إلى مخرج لطيف وذلك إعلانه أخيراً فى دروسه بالجامعة المصرية^(١) أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن » ، وأنت ترى فى كلامه هذا مثلاً من شروده وهوج تفكيره ، لأنه كان يتكلم عن القرآن كثر جاهلى فى زعمه ، فانتقل إلى الكلام عن القرآن هل هو نثر أو غير نثر ، كأنه لا يرى الفرق الهائل بين الأمرين . ثم استمر يتحدث عن رأى الدكتور طه فقال :

« وقد بلغتني عنه هذه الكلمة وأنا فى باريس فحسبته يمزح ... »

ولقد كتور دليل آخر على أنه « لا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية » ذكره في قوله عقب ذلك « وفي القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفهم النطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغراب في الألفاظ والتماير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان » ص ٣٩ وملخص هذا الدليل أن القرآن صورة صحيحة لنثر الجاهلية الفنى لأن المشرىين كانوا يفهمونه ويستسيغونه . ولازم هذا إن صح ، أن الجاهليين لم يكونوا ليفهموا ولا يستسيغوا نثر ابن سلام والجاحظ ، ولا نثر سهل بن هارون وعبد الحميد وابن المقفع ، ولا نثر الخوارزمي وابن عباد وابن العميد ؛ بل ولا شعر جرير والفرزدق والأخطل وبشار وابن الرومى والبحترى ، لأن شعر هؤلاء ونثر أولئك إسلامى لا جاهلى ، فإذا هم فهموه واستساغوه كان في منطق الدكتور جاهلياً لا إسلامياً ، كأن تعريف الأدب الإسلامى عند الدكتور هو ما لا يمكن أن يفهمه أو يستسيغه الجاهليون !

لكن عدّ عن هذا وارجع إلى تلك القطعة من كلام صاحب النثر الفنى ففيها ما هو أهم من هذا كله في ما نحن بصدده . اقرأ قوله : « وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم » ، وامض إلى آخر القطعة ، ولا حظ استيعاده أن يقصد النبي إلى الإغراب أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب ، واذكر أن هذا كله قاله صاحب النثر الفنى في مقام الكلام عن القرآن وموافقته لغة العرب . ألا ترى أن ذلك القول منه أقرب ما يكون إلى التصريح بأن القرآن من كلام النثر ، حدث قومه به وتجنب فيه الإغراب عليهم في الألفاظ والتماير لم يقهرها عما يأنفون ؟ إن الرجل صاحب رأى في القرآن ، وبأبى هذا رأى إلا أن يظهر فيما يكتب وما يسوق من استدلال

ومضى الرجل إلى آخر الشوط في استنتاجه من فرضه الذي

افترض من أن القرآن (أثر جاهلى) فيزعم للعرب في الجاهلية (نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية) كان الإسلام تاجاً لها^(١) ، أى أن الإسلام كان نتيجة وتاماً لتلك النهضة لا سبباً لها . اقرأ تعليقه بعد إن شئت : « لأنه لا يمكن رجلاً فرداً مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت في أعماقها وفي ضمائرنا وفي عقولها بحيث استطاع رجل واحد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا في زمن وجيز . ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا ، لأن أهمهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض » ! فانظر إلى صاحب هذا الكلام كيف يسوى بين الأنبياء في كل شيء . وبين الأديان ، وكيف يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول من دين ، ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب كل ما فعله النبي هو أن نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا في القارات الثلاث في زمن وجيز ! وتاريخ نشأة العلوم والآداب في الأمة العربية بعد الإسلام معروف ، كما أن مقارنة العرب للنبي ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ، لكن الرجل ينكر التاريخ ، ويفترى تاريخاً آخر ، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم في منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النبي ، كلام محمد العربي لا كلام الله . عندئذ فقط يعقل أن يكون العرب على ما وصف الدكتور زكي مبارك من نهضة وعلم وأدب ، لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم وأدب ، ولا يعقل إن كان كلام بشر أن يأتي به صاحبه في أمة جاهلة كالتي أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شريطين ومستشرقين ، ومؤرخو الإسلام .

محمد أحمد المراوى

(يتبع)